يوناتان مندل (*)

كيف يشطب الإعلام الإسرائيلي الحياة في غزة من واقع حياة الإسرائيليين

عملية "الجرف الصامد" مثالاً على الانفصال الإنساني للإسرائيليين عن الفلسطينيين

قتل الطيارون ورجال الدبابات والمدفعية والبحرية والمقاتلون الإسرائيليون، خلال العدوان الإسرائيلي الأخير على قطاع غزة في صيف عام ٢٠١٤، أكثر من ٢٠٠٠ إنسان، غالبيتهم الساحقة مدنيون ونساء وأطفال. وهذه هي المرّة التاسعة خلال ١٤ عامًا التي تشنّ فيها إسرائيل عملية عسكرية ضد قطاع غزة؛ وقد كانت إحدى الجرائم الكبرى التي نفذت في عملية "عامود السحاب" قد جرت قبل أن يبدأ العدوان – وكان ذلك استمرار تطوير أصل التفكير الإسرائيلي الأساسي والمشوّه، وحسب هذا التفكير فإنّ "ما لا تنفع معه القوّة يمكن أن يجدي فيه استعمال المزيد من القوّة"؛ وحسب ذلك فإن ما لم يحقق النجاح في المرّات الثماني السابقة (بما في ذلك عمليتا "الرصاص المصبوب" و"عامود السحاب") يمكن أن يحقق النجاح في المرّة التاسعة؛ وحسب هذا التفكير فإن الفلسطينيين، بخلاف الشعوب الأخرى، "يفهمون لغة القوّة فقط"، وأن إطلاق صواريخ القسّام من قطاع غزة ليس نتيجة للاحتلال واليأس والحصار الذي تتحمل إسرائيل مسؤوليته، بل هو عملية إرهابية بدون سياق، ومثلها في ذلك مثل إطلاق قذائف على لندن من ضواحي باريس في صباح الغد.

برزت في الحرب الأخيرة حقيقة أخرى مقلقة، إلى جانب التجنّد الإسرائيلي المقلق والشامل مع الحرب – أكثر من ٨٥٪ من الإسرائيليين اعتقدوا أنه "لا يوجد خيار" وأن الجيش "مضطر" مرّة

(*) د. يوناتان مندل: مدير المشاريع المختصة بالعالم العربي في معهد فان لير في القدس. نصّ مختصر لهذه المقالة نُشر في موقع "محادثة محلّية" (سيحاه مقوميت) خلال العدوان الإسرائيلي على غزة في صيف ٢٠١٤.

المثال الشهير الذي يمكن تقديمه للمقارنة بين إسرائيل في "الرصاص المصبوب" وإسرائيل خلال "الجرف الصامد" يتعلق بالحادث الذي تقشعرّ له الأبدان خلال العدوان الإسرائيلي في شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩ والذي صرخ في أعقابه الطبيب الغزاوي الدكتور عز الدين أبو العيش في بث حيّ ومباشر في التلفزيون الإسرائيلي، وهو واقف بجانب جثامين بناته اللواتي فارقن الحياة جرّاء القصف وإصابة منزله بشكل مباشر. وفي عملية "الجرف الصامد"، بعد خمس سنوات، اتضح أن خيط الحياة الواهي هذا بين الإسرائيليين والفلسطينيين قد انمحى. فخلال المعارك في قطاع غزة لم يكن هناك ذِكر للأحياء والأموات في غزة في قنوات التلفزيون الإسرائيلي.

أخرى إلى دخول الحرب على غزة. كان الفلسطينيون – كمجموعة بشرية تنزف دمًا وتتعرض للأذى وتبكي وتعاني – مغيّبين في الحرب الأخيرة بصورة حادة ومرعبة جدًا أكثر مما كان عليه الأمر في السابق. ولا أقصد هنا القول أن التلفزيون الإسرائيلي عرض قبل ذلك صورًا صادقة متحرّرة من الرقابة للدمار الذي ألحقه الجنود الإسرائيليون بالفلسطينيين. ففي عملية "الرصاص المصبوب" في شتاء عام ٢٠٠٨، على سبيل المثال، كان التجنّد من أجل القتل وضد المنطق قويًا بالضبط مثل التجنّد في عملية "عامود السحاب" في صيف ٢٠١٤. ولكن وبالرغم من ذلك، وفي حين كانت في الحروب السابقة طبقة الوسطاء الثقافيين الإسرائيليين مكونة من صحافيين يعرفون الناس الذين يجب تغطيتهم إعلاميًا ويتحدثون معهم ويلتقون بهم ويسمحون بإظهار القليل من الإنسانية في التقارير، فقد بدا في الحرب الأخيرة أن "خطة فكّ الارتباط" الإسرائيلية، التي أطلقها أرئيل شارون، قد نجحت في الأساس على المستوى العقلي والفكري. الإسرائيليون في عام ٢٠١٤ لا يعرفون أن قطاع غزة موجود كمصدر حياة، ولا يعرفون أن هناك بشرًا يعيشون في القطاع. والأخطر من ذلك أن وكلاء الوساطة الإسرائيليين والصحافيين الذين تستدعي وظيفتهم تصوير "الآخر" الفلسطيني للجمهور الإسرائيلي، لا يعرفون الغزّيين ولا يشعرون بهم ولا يتحدثون معهم ولا يتصلون بهم ولا يريدون أن يسمعوهم. وهناك شكوك حول ما إذا كانوا يعلمون أنهم موجودون أصلاً.

المثال الشهير الذي يمكن تقديمه للمقارنة بين إسرائيل في "الرصاص المصبوب" وإسرائيل خلال "الجرف الصامد" يتعلق بالحادث الذي تقشعرّ له الأبدان خلال العدوان الإسرائيلي في شتاء ٢٠٠٨–٢٠٠٩ والذي صرخ في أعقابه الطبيب الغزاوي الدكتور عز الدين أبو العيش في بث حيّ ومباشر في التلفزيون الإسرائيلي، وهو واقف بجانب جثامين بناته اللواتي فارقن الحياة جرّاء القصف وإصابة منزله بشكل مباشر. وفي عملية "الجرف الصامد"، بعد خمس سنوات، اتضح أن خيط الحياة الواهي هذا بين الإسرائيليين والفلسطينيين قد انمحى. فخلال المعارك في قطاع غزة لم يكن هناك ذِكر للأحياء والأموات في غزة في قنوات التلفزيون الإسرائيلي. فقد أثبتت هذه القنوات أن كلب حراسة الديمقراطية يستطيع أن يتحول بسهولة إلى جرو لحماية حكومة إسرائيل والجيش الإسرائيلي وإلى كلب قوي وجريء لحملة الدعاية الإسرائيلية.

ويجب علينا من أجل الاطلاع على حجم الأزمة العودة إلى ١٦ كانون الثاني ٢٠٠٩. كان ذلك قبل انتهاء عملية "الرصاص المصبوب" بيومين، حين تجاوز عدد القتلى الفلسطينيين الألف. في ذلك الوقت، وقبل انتهاء العملية الرهيبة بوقت قصير، حدثت "هزة أرضية" بالمفاهيم الإعلامية الإسرائيلية. حتى تلك اللحظة كانت شبكات التلفزيون الإسرائيلية قد حجبت عن الجمهور الإسرائيلي الحقيقة المريرة والمناظر الرهيبة في غزة واكتفت بتصوير سُحب الغبار والدخان فوق غزة وبمواد يحرّرها الناطق باسم الجيش الإسرائيلي. وبعبارة أخرى، فإنه في ذلك الوقت أيضًا توافقت غالبية وسائل الإعلام الإسرائيلية وانسجمت مع الانفصال الفكري والأخلاقي الإسرائيلي، وسعت كي لا تقوم بدورها وكي تشكّل أبواقًا إعلامية للحكومة الإسرائيلية ورؤيتها الحربية والضيقة.

ولكن في ذلك الحين حدثت "الهزّة" في برنامج أوشرات كوتلر في القناة العاشرة، حين أنهت مقدمة البرنامج الخبر حول المباحثات بصدد وقف إطلاق نار "إنساني"، وبالضبط حين بدأت قراءة نبأ متعلق بالساحة السياسية وقالت "وزيرة الخارجية تسيبي ليفني..."

بدأت الأرض تهتزّ. في تسجيل الحدث يمكن مشاهدة المذيعة وهي تسكت فجأة وتوقِف سيل كلامها وتنظر، وهي مرتبكة، نحو شلومي إلدار، المعلق المختص بالشؤون الفلسطينية الذي جلس إلى جانبها وأشار لها بيده بالتوقف عن البث. كان البث مباشرًا، ومثل هذه المفاجآت لا تحدث عادة، ولذلك غطت تعابير المفاجأة وجه المذيعة حين أدارت رأسها نحو إلدار، وتحركت الكاميرا معها، وقالت "نعم، عفوًا" ونظرت إلى الكاميرا وهي ما زالت لا تعي ما الذي يحدث بالضبط. حينها نظرت مرّة أخرى إلى إلدار ومرّة أخرى إلى الكاميرا وقالت: "اسمحوا لي، أنا مضطرة لوقف اللقطة الإخبارية لأن هناك على ما يبدو مستجد".

"قتلوا بناتي، يا ربّ"

انتقلت الكاميرا إلى إلدار. "أنا"، قال مرتبكًا، "حدث هنا أمر مهمّ... موجود معنا على الخط الدكتور عبد العزيز أبو العيش... لقد ظهر معنا في البث التلفزيوني عبر هذه القناة خلال فترة معينة... هو الآن معي على الخط الهاتفي... وأعتقد أن قذيفة أطلقت عليه... لم أستطع أن أفهم بالضبط، ولكنني أعتقد أن عائلته جريحة ومصابة...". بعد ذلك، وبعد تردد قصير، قال إلدار: "أنا... أنا... ربّما أستطيع أن أُسمعكم...". وفي أثناء كلامه رفع جهاز تلفونه، وبقرار مستقلّ ودون أن يقول للمشاهدين ماذا سيحدث، رفع الصوت. وفي بث حيّ ومباشر وأمام الكاميرات وقف إلدار ورفع الأصوات الآتية من غزة. انطلقت عبر الهاتف صرخات يأس. "ربّما تستطيع أن تأتي إلينا يا شلومي... يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ". لقد سُمع صوت نحيب الدكتور أبو العيش. بدا إلدار هائجًا مضطربًا، بلع ريقه وقال: "في الأيام الأخيرة أصيب أقرباؤه... أنا أعتقد أنني أيضًا متأثر وعصبي قليلاً".

لم يعرف إلدار إلى من يتحدث، إلى المشاهد الإسرائيلي أم إلى كوتلر التي جلست بجانبه،، أم إلى الشخص الذي وقف داخل بيته في غزة، محاطًا بالدمار والغبار، والذي كان على الخط معه ومع كل الشعب الإسرائيلي في بث حي ومباشر. نظر إلدار إلى هاتفه النقال وإلى الكاميرا وإلى كوتلر، ومرّة أخرى إلى هاتفه. "الدكتور أبو العيش هو طبيب في مستشفى تل هشومير" قال إلدار للمشاهدين، محاولاً تقديم خلفية قصيرة، ولكن صوت البكاء ارتفع على الجانب الآخر، سُمع صوت الطبيب الغزاوي وهو يقول: "يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ... يا ربّ، يا ربّ، يا ربّ".

"أبو العيش" قال إلدار، "أنا موجود الآن في الاستوديو، في بث حيّ". أدار إلدار وجهه إلى الكاميرا وقال: "تحدثت معه في الأيام الأخيرة. لقد خشي من إمكانية إصابة عائلته... وفي إحدى المرّات ظهر في القناة الثانية، وأجرى جابي غزيت مقابلة معه، لأنه اعتقد أن هذه هي الطريقة الوحيدة للتحذير من الإصابة والأذى". ولكن صرخات أبو العيش سُمعت مرّة أخرى حين كان إلدار يتكلم: "يا ربّ، يا شلومي". لقد بدا أن إلدار يستصعب الكلام، وسأل في بث مباشر: "أبو العيش، من المصابون؟". وأجاب الطبيب فورًا: "بناتي. يا ربّ، يا ربّ". أدار إلدار وجهه ثانية إلى الكاميرا: "له ثمانية أولاد... طيلة الحرب قام بحمايتهم في بيته في بيت لاهيا". ولكن، انقطع حديثه مرّة أخرى جرّاء البكاء الآتي من غزّة. كان بالإمكان تخيّل المناظر التي شاهدها أبو العيش في تلك اللحظة. وصرخ أبو العيش في الهاتف ونحو المشاهدين الإسرائيليين: "يا الله. يا ربّ. يا ربّ". حاول إلدار أن يفكر بشيء عملي: "ربّما الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نفعله لكي نساعد هو التوجه إلى من يستطيع، إلى الجيش الإسرائيلي. أبو العيش، قل لي أين بيتك بالضبط؟ ربما يرسلون إليك سيّارات الإسعاف". بكى أبو العيش وانتحب: "أريد إنقاذهنّ... في الحقيقة... ولكن هنّ مُتن... في الحقيقة... أريد إنقاذهن... ولكن رؤوسهن... في الحقيقة... رؤوسهن في مكان والأجساد في مكان آخر...". نظر إلدار إلى الكاميرا، ولكنه لم يستطع إخفاء الدموع في عينيه. وواصل أبو العيش: "ماذا فعلتم بهنّ... يا ربّ. يا الله... ماذا فعلنا لكم يا الله، يا ربّ، ماذا فعلنا لكم... ماذا فعلنا لكنّ؟...". وفي الخلفية سُمعت أصوات بُكاء خلال حديث أبو العيش. كان، على ما يبدو، محاطًا بأبناء عائلة آخرين شاهدوا المناظر القاسية في البيت.

كان واضحًا أن إلدار يجد صعوبة في الحديث. بلع المزيد من ريقه. "خلال أيام طويلة كان يجري الاتصال معي" قال إلدار وفي الخلفية صراخ البكاء ينطلق من البيت في غزة. بدا وكأنه يريد هو أيضًا أن ينفجر في البكاء. "هو لم يعرف ماذا يفعل" قال إلدار... "خاف حتى من الخروج من البيت مع العلم الأبيض". وفي الخلفية سُمعت طيلة الوقت صرخات البكاء الذي يمزّق القلب من غزة. أدار إلدار نظره إلى الكاميرا وقال: "أنا مضطر لأقول لكم أنني لا أعرف كيف أقطع هذه المحادثة". كان عصبيًا جدًا، وكان واضحًا أنه هائج جدًا ولا يدري ماذا يفعل. لم يعرف ماذا يقول للطبيب الغزاوي أو لنا أو لكوتلر أو لنفسه. "أنا لا أستطيع قطع المكالمة". قال وكرّر ذلك ثانية "أنا لا أستطيع قطع هذه المكالمة". بعد ذلك سكت. ثم قال مرّة أخرى "لن أقطع المكالمة".

النظر بعين الجيش، متلازمة الإعلام الإسرائيلي.

ساد الهدوء في الاستوديو. سكتت كوتلر وصمت إلدار وسكت المشاهدون المذهولون في البيوت سكتوا بالتأكيد. إلدار انزرع في كرسيّه وأمسك بهاتفه وقال فقط "أنا لا أستطيع أن أقطع هذه المكالمة". وبعد هدوء استمرّ عدة ثوانٍ ألغى مرّة أخرى البكاء الآتي من غزة الهدوء الإسرائيلي والانفصال الإنساني الذي أحاط بالإسرائيليين بشكل طبيعي. "بناتي، قتلوهم يا ربّ"، هكذا سُمع صوت أبو العيش الذي يمزق القلب. "قتلوا البنات... يا الله. يا الله". لم تنطق كوتلر بكملة واحدة. إلدار حاول ثانية قائلاً "الشيء الوحيد الذي يمكن عمله هو التوجه إلى من يسمعنا، إلى من يرانا... ربما في الجيش الإسرائيلي... ربما يمكن أن ننقذ البعض هناك". وبعد ذلك مباشرة سُمع مرّة أخرى ذلك البكاء الخانق من غزة: "يا ربّ، ساعدنا يا ربّ. يا الله". حاول إلدار مرّة أخرى أن يساعد: "أنا أذكر يا عبد العزيز. أذكر أنك قلت لي ذات مرّة أنك تسكن بالقرب من مفترق طرق معيّن". "صحيح" قال له أبو العيش "أنا أسكن بالقرب من مفرق زيمو". أصبحت المحادثة مضطربة. أصوات البكاء من هناك، وكبح بكاء إلدار من هنا كانا في مركز الحدث. صحا إلدار وفكر في الأمر: "لا أدري هل يسمعنا الناطق بلسان الجيش الإسرائيلي، هل يسمعنا أحد. ربما تحاول سيارات الإسعاف التابعة للصليب الأحمر الوصول إلى هناك ولا تستطيع". ومن الجهة الثانية أصوات البكاء المستمرّة: "يا ربّ، يا ربّنا، يا الله، يا ربّ". كان البكاء مرعبًا. سكت إلدار. بدا أنه لا يستطيع الاستمرار في الإمساك بهاتفه النقال بهذا الشكل خلال البث الحيّ المباشر. نظرت إليه كوتلر دون أن تقول شيئًا. لقد بدت مرتبكة. إلدار المخلص لوعده بعدم قطع الاتصال مع غزة بأي شكل، قام من كرسيّه بشكل مفاجئ. "أعتذر وأطلب الخروج من الاستوديو" قال إلدار. "أنا لا أستطيع قطع هذه المحادثة. أنا ببساطة لا أستطيع قطع هذه المكالمة".

وفي الوقت الذي كان فيه واقفًا تواصل البكاء الذي سُمع عبر هاتفه النقال الذي كان مفتوحًا وبصوت مرتفع متيحًا لكوتلر وإلدار والمشاهدين في البيوت سماع ما يجري. "يا ربّ. يا ربّ". استمرّ البكاء من غزة. "أنتم مضطرون للسماح لي" قال إلدار في الوقت الذي نهض فيه. "أنا ببساطة سأقوم وسأخرج من الاستوديو". وفي أثناء كلامه رفع السماعات عن أذنيه وقام. بدا أنه يمشي بصعوبة. "بكل بساطة أنا لا أستطيع قطع هذه المحاثة" قال ذلك مرّة أخرى. غادر الغرفة وتحولت الكاميرا إلى كوتلر. بكاء لمدة أربع دقائق من غزة. وقد بدا أن كوتلر لا تزال غير قادرة على أن تقول شيئًا. كانت هذه بالتأكيد المرّة الأولى منذ بداية الحرب التي سُمحت فيها لذرّات

لقد قال التاريخ كلمته، على الأقل فيما يتعلق بتاريخ التغطية الإعلامية الإسرائيلية لحروب إسرائيل. فاليوم، حين نعود إلى النصّ الذي تقشعرّ له الأبدان الذي استمرّ ٤ دقائق و ١٧ ثانية، الذي جرى بثه قبل خمس سنوات ونصف، ونستمع إليه ونقارنه مع النشرات الإسرائيلية خلال عملية "الجرف الصامد" التي قتلت القوات الإسرائيلية خلالها أكثر من ٢٠٠٠ إنسان، يتضح لنا أن ذلك البث – الخاص بكوتلر وإلدار وأبو العيش، لم يعلّم الإعلام الإسرائيلي "ما الذي يجب أن يفعله"، بل على العكس، علّمه ما الذي يجب ألاّ يحدث إطلاقًا.

من خلال تحليل الخطاب الإعلامي الإسرائيلي أثناء "الجرف الصامد" تتعزز المعرفة بأنه خلال الحرب لم يسمع مواطنو إسرائيل – وبالتأكيد في التلفزيون الرسمي أو التجاري الإسرائيلي – أصواتًا مشابهة لصوت أبو العيش.

من الإنسانية أن تدخل أذنيها وآذان المشاهدين. بدا وكأنها امتصّت صدمة. بدأت تتكلّم. "هذه الأمور قاسية جدًا لمن سمعها الآن"، قالت وهي مضطربة إزاء ما جرى في الاستوديو. وانتقلت بصعوبة بالغة إلى المرأة التالية التي ستجري معها مقابلة. وقد بدت هي الأخرى تبذل جهودًا كبيرة لكبح دموعها. خرج إلدار من الاستوديو. وهكذا انتهت المعركة الأولى والوحيدة لنقل الواقع في غزة إلى المشاهد الإسرائيلي وجهًا لوجه.

هذا هو النص الكامل للأمور. ٤ دقائق و ١٧ ثانية من البكاء في بث حيّ ومباشر منذ اللحظة الرهيبة. وبعد المحادثة وصلت مئات الشكاوى إلى القناة العاشرة ومفادها أن هذا البث "يصعب الاستماع إليه". من هنا يمكن أن نعلم كم كانت التقارير عن غزة جافة حتى ذلك الوقت. لم يعرض أبو العيش للإسرائيليين جثامين ألف إنسان قتلتهم إسرائيل خلال عدّة أسابيع، بل أتاح لهم الاستماع إلى سبعة أشخاص أحياء فقط.

وبعد ذلك بعدّة أيام قال إلدار إن تلك اللحظات كانت صعبة ومؤثرة في حياته. وحسب رأيه، فإنه في أربع دقائق "في محادثة هاتفية واحدة، اتضحت للإسرائيليين أبعاد الفظائع التي تحدث في قطاع غزة". كوتلر أيضًا قالت بعد بث الخبر أنه "لو شاهد أي شخص خلال البث ما جرى في بيت الطبيب بدون تشويهات، بحيث لا يُسمع فقط عن طريق الهاتف، فإن الحرب كانت على ما يبدو ستنتهي في اللحظة نفسها". وتعترف بأن الإعلام الإسرائيلي بمنعه وصول الصور إلى المشاهدين الإسرائيليين يعطي الجيش الإسرائيلي حيزًا للعمل بدون قيود. وحسب أقوال كوتلر فإنها لم تفكر في تلك اللحظات أنه كان بالإمكان قطع المكالمة وقالت "في تلك اللحظة لم نفكر ماذا نفعل وقت البث ولم نفكر فيما إذا كان للحادث إسقاطات على الحرب، وأن الأمر الوحيد الذي أثار الاهتمام هو فقط حقيقة كوننا كنا نتحدث مع إنسان كانت بناته يعانين سكرات الموت. هذا هو الأمر الإنساني الأساسي. وسيتحدث التاريخ عن أهمية هذه المكالمة".

من "الرصاص المصبوب" إلى "الجرف الصامد"

لقد قال التاريخ كلمته، على الأقل فيما يتعلق بتاريخ التغطية الإعلامية الإسرائيلية لحروب إسرائيل. فاليوم، حين نعود إلى النصّ الذي تقشعرّ له الأبدان الذي استمرّ ٤ دقائق و ١٧ ثانية، الذي جرى بثه قبل خمس سنوات ونصف، ونستمع إليه ونقارنه مع النشرات الإسرائيلية خلال عملية "الجرف الصامد" التي قتلت القوات الإسرائيلية خلالها أكثر من ٢٠٠٠ إنسان، يتضح لنا أن ذلك البث – الخاص بكوتلر وإلدار وأبو العيش، لم يعلّم الإعلام الإسرائيلي "ما الذي يجب أن يفعله"، بل على العكس، علّمه ما الذي يجب ألاّ يحدث إطلاقًا.

من خلال تحليل الخطاب الإعلامي الإسرائيلي أثناء "الجرف الصامد" تتعزز المعرفة بأنه خلال الحرب لم يسمع مواطنو إسرائيل – وبالتأكيد في التلفزيون الرسمي أو التجاري

غزة ٢٠١٤: المشهد الإنساني الغائب.

الإسرائيلي – أصواتًا مشابهة لصوت أبو العيش. صحيح أن إلدار يمكث في هذه الأيام في واشنطن ويعمل في معهد أبحاث أميركي، ولكن صوته لم يُسمَع لسبب آخر، منذ فظائع عملية "الرصاص المصبوب" مرّت خمس سنوات حتى جاءت فظائع "الجرف الصامد". في خلال هذه السنوات الخمس لم تتغير "حماس" فقط، بل تغيرت إسرائيل أيضًا.

غزة فقدت إنسانيتها في نظرنا

منذ فترة عملية "الرصاص المصبوب" وحتى عملية "الجرف الصامد" مرّت خمس سنوات ونصف ابتعد خلالها قطاع غزة أكثر عن عيون المواطنين الإسرائيليين وقلوبهم وضمائرهم، وتعزز في إسرائيل شطب ١,٨ مليون إنسان يعيشون في قطاع غزة. ولم يكن في هذه الفترة للتلفزيون الإسرائيلي الرسمي والتجاري مراسلون لنقل الأخبار هناك، ولم يبذل التلفزيون جهدًا لاستحضار أصوات أخرى، كالمراسلين الأجانب، لأداء العمل من أجل جمهور المشاهدين الإسرائيليين. ونتيجة لذلك ازدادت قوة تأثير المعلقين الذين يحصلون على المعلومات من الجيش، وفي الواقع إن كل ما يستطيع أن يسمعه مواطنو إسرائيل اليوم حول ما يجري في غزة هو عبارة عن معلومات تتوسط فيها الدعاية الإسرائيلية أو عن طريق توجيهات وتلخيصات الجيش لمهمّاته.

وكما ذكرنا، فإن الجمهور الإسرائيلي لم يكن أكثر إصغاءً وإحساسًا تجاه مشاعر وابتهالات المصابين في غزة خلال عملية "الرصاص المصبوب"؛ فقد قُتل في تلك الحملة نحو ١٥٠٠ شخص، وسمعنا في إسرائيل الهتافات نفسها التي تقول "أعطوا الفرصة للجيش لكي ينتصر" و "أعطوا الفرصة للجيش لكي يحصد". ولكن منذ ذلك الوقت مرّت خمس سنوات ونصف ابتعد خلالها مواطنو إسرائيل خمس سنوات ونصف ضوئيّة عن معرفة الناس الذين يعيشون في قطاع غزة، وكذلك عن اعترافهم بمسؤوليتهم عن الوضع السائد هناك؛ السجن المغلق الأكبر في العالم الذي يعيش فيه سكان فقراء متعلقون بصدَقات الأمم المتحدة. وخلال السنوات الخمس والنصف هذه فقدت غزة في نظر الإسرائيليين جزءًا آخر من إنسانيتها، الأمر الذي سهّل القتل وقلّل أصوات النقد. وفيما يتعلق بموضوعنا، فإن ذلك لم يمكّن المواطنين الإسرائيليين من الشعور بأن شيئًا ما ناقص، ولم يمكّنهم حتى من تخيّل كيف يبدو ابن عائلة أبو جامع وهو يبكي في بثّ حيّ موتَ ٢٨ من أبناء عائلته؛ ولم يُسمح لهم بالتفكير كيف سيكون شعورهم في حالة ظهور أحد أبناء عائلة بكر التي قُتل أبناؤها

وحسب فرضية البروفسور نيف جـوردون فـإن انفصال الإسرائيليين الجسدي عن مراكز الحياة الفلسطينية والانتقال من استراتيجية الاحتلال إلى استراتيجية الاحتلال عن طريق "الانفصال"، جعل قتل الفلسطينيين أسهل بالنسبة إلى الإسرائيليين. فالإسرائيليون لا يرون الفلسطينيين ولا يلتقون بهم، وإن كل ما يريدونه هو التأكد من أنهم سيعيشون خلف الجدران والأسوار كي لا يروهُم وكي لا يشعروا تجاههم بأي شعور – وحينئذ لماذا نستغرب إنه من السهل لهم قتلهم، وأنهم لا يشعرون بأن هناك حاجة للاستماع إليهم؟

الأربعة على شاطئ بحر غزة في بث تلفزيوني؛ أو ماذا كان سيقول للجمهور الإسرائيلي أحد أبناء عائلة البطش التي قُتل ٢١ من أبنائها وبناتها.

وفي الحقيقة فإن الجمهور الإسرائيلي ابتعد كثيرًا عن غزة، ونجح بشكل كبير في شيطنة القطاع إلى درجة أنه أصبح غير مستعدّ لسماع الحديث عن غزة والمعاناة الإنسانية هناك حتى من الإسرائيليين أنفسهم. خذوا، على سبيل المثال، الرسالة اللاّسلكية التي سعت "بتسيلم"، المنظمة الإسرائيلية لحقوق الإنسان، إلى نشرها؛ وهي فيلم قصير تُقرأ فيه أسماء المواطنين الفلسطينيين الذين قتلهم الجنود الإسرائيليون في غزة. منعت الرقابة الإسرائيلية بث هذه الرسالة "خوفًا من المسّ بمشاعر الجمهور الإسرائيلي". من الصعب، بل ومن غير الممكن عمليًا تخيّل بث مقابلة كتلك التي جرت مع أبو العيش في هذه الأيام، في التلفزيون الإسرائيلي، سواء في القناة الثانية أو الأولى أو العاشرة. فأولاً، من الذي سوف "يتجرأ" على تقديمهم من خلال البث؟ وثانيًا، أين هو المراسل الإسرائيلي الذي يقيم علاقة شخصية أو اجتماعية أو مهنيّة مع السكان في قطاع غزة؟

وحسب فرضية البروفسور نيف جوردون فإن انفصال وابتعاد الإسرائيليين الجسدي عن مراكز الحياة الفلسطينية والانتقال من استراتيجية الاحتلال إلى استراتيجية الاحتلال عن طريق "الانفصال"، جعل قتل الفلسطينيين أسهل بالنسبة إلى الإسرائيليين. فالإسرائيليون لا يرون الفلسطينيين ولا يلتقون بهم، وإن كل ما يريدونه هو التأكد من أنهم سيعيشون خلف الجدران والأسوار كي لا يروهُم وكي لا يشعروا تجاههم بأي شعور – وحينئذ لماذا نستغرب إنه من السهل لهم قتلهم، وأنهم لا يشعرون بأن هناك حاجة للاستماع إليهم؟

علاقة الصحافيين مع غزة تمرّ عبر الجيش

وإذا ما أردنا قول الحقيقة، فإن وسائل الإعلام الرائجة في إسرائيل تقوم بعملها "بإخلاص"، إذا ما كان الإخلاص متعلقًا بتوظيف المراسلين المخلصين لخطّ أو موقف دولة إسرائيل، وبالأحرى في وقت الحرب. وفي هذا الأمر بالطبع خيانة وليس إخلاصًا لدورهم كصحافيين. ولكن لا جديد في هذه المسألة. ما حدث في الحقيقة هو ما يلي: بسبب الانفصال الكبير والمتزايد عن قطاع غزة، وبسبب تحويل القطاع إلى "عالم آخر" قائم خلف جبال الظلمات، بسبب كل ذلك اتّخذ الإعلام الإسرائيلي شكل الأداة الأيديولوجية التي صمّمها له وزراء الحكومة ومكاتب الدعاية.

وإذا لم يكن الأمر كذلك، فكيف يمكن أن نفسّر حقيقة أنه في زمن العدوان الأخير على غزة ("الجرف الصامد") أطلقت رسائل من قبَل منسّق أعمال الحكومة في المناطق المحتلة، الجنرال يوآف مردخاي، وبشكل خاصّ في مقابلات باللغة العربية (تلعب بالتأكيد دورًا في الحرب النفسية الإسرائيلية)، وأن هذه الرسائل حظيت بالدعم والإسناد بعد ذلك مباشرة من "تحقيقات" في الإعلام الإسرائيلي عالجت وبشكل غير مفاجئ المواضيع نفسها بالضبط. قال مردخاي "قطر" فسارعت وسائل الإعلام إلى إعداد "تحقيق" عن قطر. مردخاي قال "حماس تستثمر فقط في بناء الأنفاق" وبعد ذلك عُرضت ونُشرت على

الفور مقالات وتحقيقات تقول أن "حماس تستثمر فقط في بناء الأنفاق، وليس في بناء المدارس".

في الحرب الأخيرة كانت الأمور متوافقة بالكامل تقريبًا. ما قاله الجيش نُشر بعد ذلك في الصحافة الإسرائيلية، والنتائج والاستنتاجات التي توصّلت إليها قيادة الجيش الإسرائيلي هي بالضبط النتائج والاستنتاجات التي توصّل إليها المعلقون الإعلاميون في قنوات التلفزيون الإسرائيلية. والأمثلة على ذلك: "ثراء قادة حماس وحياتهم المريحة"، و"إطلاق النيران من المستشفيات"، و"خرق وقف إطلاق النار من الجانب الفلسطيني"، والافتراض أن حماس استثمرت كل الأموال في بناء الأنفاق فقط ولم تبنِ بيتًا واحدًا أو ملعبًا لكرة القدم، إخفاء الإغلاق والحصار والاحتلال وعلاقتهم بالنضال الفلسطيني، وعدم بحث اقتراح الهدنة من جانب حماس الذي سبق الهجوم البرّي، وغير ذلك من المواضيع. فهل يمكن أصلاً تخيّل وجود معلّق أو مذيع دائم في أيّ قناة إسرائيلية لديه الاستعداد لتحدّي الرسائل الواردة من الجيش الإسرائيلي؟ ومن هو مستعدّ لتقديم رسالة إخبارية مختلفة عن رسائل الجنرال مردخاي؟ أو من يحاول إثبات صحّتها من قبَل زميل أو زميلة في غزة؟ وهل يوجد بينهم من يعرف زميلاً أو زميلة في غزة؟

يعيش في قطاع غزة ١,٨ مليون إنسان؛ والجمهور الإسرائيلي، بمن في ذلك المراسلون والصحافيون، لا يعرف عنهم شيئًا تقريبًا. وخلال الشهر الأخير واصل ١,٨ مليون غزاوي العيش في ظلّ الحصار الإسرائيلي المستمرّ. وفي البرد الذي يزداد شدّة يقوم الكثير منهم لأداء صلاة الفجر في المسجد، وآخرون يشربون القهوة على عجَل ويخرجون من بيوتهم إلى المدارس أو إلى العمل، إذا ما توفّر. وهم في غالبية ساعات اليوم، بوجود أو عدم وجود الكهرباء، يسمعون كل الوقت أصوات الطائرات الإسرائيلية بدون طيار – وهي أصوات أصبحت أزيزًا مستمرًا منذ أن "غادرت" إسرائيل القطاع. وهم لا يزالون حتى الآن غير قادرين على الصيد في البحر كما ينبغي، وهم ما زالوا منقطعين عن العالم. الكثيرون منهم بالتأكيد يعارضون حماس، وكثيرون غيرهم يؤيّدون هذه الحركة، ولكن الإسرائيليين في سديروت وأشكلون وتل أبيب وحيفا – لن يروا أيًّا من الطرفين على شاشات التلفزيون. ربما لا يزال كبار الإعلاميين الإسرائيليين القدامى يتذكرون الغزاويين وهم يضحكون، ولكن لا يستطيع الإسرائيليون في هذه الأيام أن يتذكروا كيف يبدو الغزاويون وهم يبكون.

– هذا هو رابط البث الخاصّ بشلومي إلدار وأوشرات كوتلر والدكتور عبد العزيز أبو العيش، في كانون الثاني ٢٠٠٩.

https://www.youtube.com/watch?v=OLUJ4fF2HN4

[ترجمه عن العبرية: محمد كيال]